التربية والحس الحضاري من المنظور الإسلامي

د. كريمة محمد بشيوة
كلية الآداب - جامعة الفاتح

المقدمة:

بعد الحمد لله رب العالمين والصلاة على نبينا الكريم

تعد الدراسات في مجال فلسفة الحضارة دراسات حديثة نسبياً مقارنة لغيرها من المجالات العلمية المختلفة ،لأن هذا الفرع من المعرفة استجد حديثاً بعد تطور البحث في مناهج التاريخ ،إذ يعد تاريخ الإنسانية هو كل ما أنتجه الإنسان ولم يعد مقصوراً على الأحداث السياسية وسير الملوك والأبطال كما هو في السابق ، وإنما إنجازات الإنسان عبر الزمان كله تاريخياً للبشرية ينبغي أن يدرس ويحظى بالاهتمام . والحضارة بهذا المعنى بنية المجتمعات منذ نشوئها على الأرض بما تضمه من أنظمة مختلفة ، فالنظام التربوي في المجتمع جزء لا يتجزأ من تاريخ الإنسان ومن حضارته ، ودلالة كبيرة وواضحة على مراحل تطوره ومدى تقدمه عبر العصور ، ومن هنا فالحضارة الإسلامية بمبادئها المتميزة جعلت من النظام التربوي في المجتمع الإسلامي موضوعاً جديراً بالتحليل والدراسة خاصة في ظل مستجدات الحضارة المعاصرة رغبة من الباحثة في الإجابة عن سؤال مهم ، وهو ما هي علاقة التربية بالحضارة ؟ وما أهم ملامح التغير الذي أثرت فيها الحضارة المعاصرة على البناء الاجتماعي في الإسلام وخاصة الأسرة باعتبارها وحدة الحضور الحقيقي للإنسان باعتباره كائن اجتماعي أو مدني بالطبع .

ولذا فإن معالجة موضوع التربية والحضارة يبدأ من دائرة واسعة هي الحضارة الإنسانية ومتضمنة مفهوم الثقافة الخاصة للمجتمع ثم علاقته بالبناء الاجتماعي وعلى كيان الأسرة تحديداً كدائرة للتربية .

وقد عالجت هذه الورقة الحضارة والتربية من خلال أبعاد ثلاثة هي :

- البعد الفلسفي .
- البعد الحضاري .

- البعد الاجتماعي .

ثم عرجت على بعض ملامح الحضارة الإسلامية كنظرية للكون والحياة وبعض مستجدات الحضارة المعاصرة التي أثرت في كيان المجتمع المسلم آملة أن تكون هذه الورقة دافعاً للاهتمام بهذه العلاقة الوطيدة بين التربية والحضارة في ظل المبادئ الإنسانية لحضارة الإسلام .

التعريف بالمصطلحات :

* ماذا تقصد الباحثة بهذه المفاهيم ؟

التربية :

عملية إكساب الإنسان الخبرات ونقلها ، وتوجيه الفكر والسلوك الإنساني بما يتماشى مع فلسفة المجتمع وأهدافه ، وهي عملية مستمرة منذ الولادة حتى الموت .

وللتربية جانبان :

- الجانب الفلسفي ويسمى التربية ويعني " ذلك النشاط الذي يقوم به المربون والفلاسفة لتوضيح العملية التربوية وتنسيقها ونقدها وتعديلها في ضوء مشكلات الثقافة وتناقضاتها " [1] .
- الجانب العملي: وهو المؤسسات والطرق والوسائل والتقنيات التي يستخدمها المجتمع في مد أفراده وتشريبهم لمحتوى فلسفته في الكون والحياة بما يتماشى مع إمكانيتهم ومواهبهم .

الحضارة :

إن الحضور الشامل للإنسان بأبعاد كيانه الروحية والعقلية والجسمية ، والوعي بهذا الحضور والنشاط المعبر عنه والإنجازات الناتجة منه والحضارة بالمعنى العام *هي

---

[1] عمر التومي الشيباني : فلسفة التربية الإسلامية ، منشورات الشركة العامة للنشر والتوزيع ، طرابلس ، 1975 م .

* للباحثة ورقة عمل في هذا الموضوع عن مفهوم الحضارة في المؤتمر الفلسفي جامعة قاريونس 2006 م .

" الإنجازات الإنسانية في الميادين كافة يأخذها جيل عن جيل وشعب عن شعب وعصر عن عصر بعد أن يضيف إليها" وما يفهم منه أيضاً أن الحضارة تصبح حصيلة ذلك التفاعل بين الأجيال والشعوب والعصور منذ بداية التاريخ الإنساني وحتى نهايته .

فالحضارة جميع مظاهر النشاط الإنساني المادية والمعنوية دينية وفكرية عقلية واجتماعية واقتصادية وسياسية وفنية كما تبدو كنسيج متفاعل متداخل دياكتيكي وفي وحدة عضوية متكاملة .

وهذا ما يتفق مع تعريف " تايلر " للثقافة ، ومن هنا ينشأ الخلط بين هذين المفهومين ومع مفهوم المدنية .[1]

- **البعد الفلسفي :**

في تطور الفكر الإنساني عبر تاريخه الطويل تطور مفهوم الفلسفة من محبة الحكمة التي دار حولها البحث الفلسفي في مواضيع تقليدية هي الوجود والمعرفة والقيم ، تلك المباحث الثلاثة التي استنفذت طاقة الإنسان في ركضه وراء الحقيقة من خلالها حتى أعلن عجزه كعقل بشري أمام حائل الموت والمصير والمجهول والمستحيل ، صار لمعنى " الغيب " معنى عمقياً يثير فضول العقل من جديد ولكن في اتجاه مختلف تماماً عما طرقه من قبل وفي طريق واضح منذ بدايته حين أعلن العقل عجزه عن الخوض في الغيب واضعاً أولى خطواته الاعتراف به وسائراً في طريق مبني على تواضع واتفاق مكتفياً بأن تصبح الفلسفة هي مناهج العلوم وذلك بعد ثلاثمائة عام من الجدل .

ففي بداية القرن العشرين تحولت الفلسفة من المذهبية إلى المنهجية وصارت موضوعاً لمناهج العلم الذي تطور في سرعة فائقة بعد تحرر العقل من قيود الخرافة ومن هنا بدأت المختلفة تبني لنفسها كيانات مستقلة ، وصار العلم يعني مفاهيم ومصطلحات ثم منهجاً للبحث وطرائق وأساليب ثم نظريات ينطلق منها الباحث وتشكل مرجعيات لمجاله .

---

[1] راجع : الموسوعة الفلسفية العربية ، زيادة وآخرون ، معهد الإنماء العربي ، بيروت ، 1988 ، وأيضاً : عطية الويشي ، الحضارة وإشكالية المصطلح ، مجلة كلية الدعوة الإسلامية طرابلس ، عدد 16 ، ص 375 .

وكما تتداخل فروع الفلسفة تتداخل فروع المعرفة وتساند القيم ، فكل منها يؤدي بالضرورة إلى الآخر ويعتمد عليه وفي نفس الوقت يستتبع كل منها إذا غاب غياب الآخر .

ومن هنا يمكن أن نعالج موضوع التربية والحضارة من أبعاد مختلفة :

البعد الفلسفي ، والبعد الحضاري ، والبعد الاجتماعي ، وكلها أبعاد متداخلة يسلم كل منها إلى الآخر بالضرورة .

يذهب المفكر " نجيب الحصادي" في محاولته الموسومة (ليس العقل وحده) واضعاً يده على موطن الداء – إلى التأكيد على قصور الإنسان الدائم نحو الإحاطة بالحقيقة رغم مسيرته الطويلة في سلم المعرفة فهو يقول : " فقد ظل هاجس البحث من أنجح السبب لفهم الواقع (بجوانبه المحسوسة والغيبية) قد استحوذ على الإنسان منذ أن طفقت قدراته الذهنية تفصح عن ذاتها وأنه قد ارتاد مجاهل الأسطورة وغيبيات الإلهيات والميثافيزيقا وعينات العلم بغية تلك الغاية ، غير أن الإنسان قد اكتشف في نهاية المطاف قصور كل منشط يمارسه على حدة .

وغياب أن تصور واضح ومتكامل عن سبيل أمثل من شأنه أن يقم علائق بين مختلف المناشط البشرية اضطر الإنسان إلى العيش عبر انفصامات " شيزوفرنية" متعددة ، ولكن الإنسان ظل يحاول رغم ظهور نوعات تشكيكية يؤكد على استحالة إنجاز مثل تلك المهام .

استمر الإنسان في ممارسته لعبة الاختزال تلك فالعلائق بين المفاهيم التي تم استحداثها لمحاولة فهم الكون قد تكثرت وتعددت أنماطها لدرجة استعصى معها الفهم "[1] .

وهذا كلام له علاقة مباشرة فيما نحن بصدد عرضه بين التربية والحضارة؛ فالعلاقة بينهما تستلزم شحذ همة العقل لاختزال المسافات عبر فهم جدلي يجعل ورقة العمل هذه تقع في تقاطع دوائر معرفية على درجة عالية من التداخل ومنها فلسفة الدين وفلسفة الحضارة والنظريات الاجتماعية وفلسفة التربية ، مما يستوجب بعد عرض

---

[1] نجيب الحصادي : " ليس بالعقل وحده" ، الدار للنشر والتوزيع والإعلان ، مصراتة – ليبيا ، 1992 ، ص 112 – 114 .

المفاهيم وعرض هذه الأبعاد ولو بشكل مبسط ، قبل الدخول في تفاصيل ملامح التربية والحضارة وبخاصة وأن الباحثة قد اختارت " الأسرة " كمؤسسة تتضح فيها ملامح الموضوع أنموذجاً .

وللباحثة هدف استراتيجي وهو محاولة بلورة مفهوم " الحس الحضاري" من خلال مجموعة دراسات هذه الورقة حلقة منها ، وهذا المفهوم يرتبط بالتربية ارتباطاً مباشراً لأنه لا يتبلور إلا في إطارها ، الإطار المعرفي المتكامل والبناء الاجتماعي المنسق المتكامل ، وذلك من خلال عملية الإدارك والفهم والنضج والوعي التي تشكل في مجموعها "الحس الحضاري " عبر مستويات المعرفة ووجدها الحسي (الحواس) وإدراكياً (العقل) ووجدانياً (الحدس) .

وإذا كان الوعي بالذات أساس الفعل الحضاري المبني على إدارة الفرد واختياره ، وأن الوعي بالتاريخ هو أساس التغير الاجتماعي ، والتقدم ، والتطور وما هو إلا مجموع من إرادات الأفراد الفاعلين في إطار جدلي - أي مفهومة في إطار المنطق الجدلي - فالفعل الحضاري أساس الحضارة وقيامها وعمادها ومن هنا جاءت أهمية دراسة العلاقة بين التربية والحضارة ، ومن هنا تكتسب الأسرة أهمية خاصة باعتبارها الأنموذج الأمثل بين مؤسسات المجتمع الذي تتجسد فيها هذه العملية وتتفعل .

- البعد الحضاري :

ومن الجانب الحضاري يمكن أن ننطلق من فهمنا للحضارة على أنها " الإنجازات الإنسانية في كافة الميادين يأخذها جيل عن جيل وشعب عن شعب وعصر عن عصر ويعلمها للأجيال اللاحقة بعد أن يضيف إليها فتصبح الحضارة بالتالي هي حصيلة ذلك التفاعل بين الأجيال والشعوب والعصور " .

وبتعبير آخر : " الحضارة يقصد بها جميع مظاهر النشاط الإنساني المادي أو المعنوي لمجتمع من المجتمعات بحيث تبدو أساليب حياته وأنشطته الدينية والفكرية والاجتماعية والسياسية كنسيج متفاعل حتى تبدو الحضارة وحدة عضوية متكاملة [1].

والحضارة بهذا المعنى تتميز بخصائص لا بد من ذكرها في هذا السياق وهي:[2]

---

[1] أحمد صبحي ، فلسفة الحضارة ، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ، بلا تاريخ - المقدمة .

[2] انظر الموسوعة الفلسفية العربية ، مصدر سابق ، مادة حضارة .

1. أنها إنسانية : فهي خاصته ، الإنسان العاقل وهي بهذا تصبح مقابلة لمفهوم الحيوانية ، أي أنها إرث الإنسان العقلاني مقابل إرثه الحيواني .
2. أنها نسبية : فهي خاضعة لمعطيات الزمان والمكان عرضاً وطولاً وتختلف بمراحل التاريخ إنجازاً وتقييماً .
3. أنها مستقبلية : كلما امتلك الإنسان أدوات الحضارة وتمكن منها زادات قدرته على تصور مستقبله بشكل أكبر .
4. الحضارة متعددة الأسباب : إذ ليس لقيامها سبب واحد أو علة واحدة مكانياً وزمانياً وإنما هي مجموعة من الظروف الكونية والبيئية المتداخلة بالغة التعقيد هيأت الإنسان لصنع الحضارة .
5. الحضارة سريعة العطب أو الاضمحلال ، فهي سريعاً ما تدمر وخاصة في جوانبها المادية العينية ، وفي جوانبها المعنوية فهي مرتبطة بوجود الإنسان بشكل أكبر .
6. أنها تراكمية بمعنى أن هناك عوامل معينة تتضافر لتراكم الإنجازات والمكتسبات الحضارية عن طريق التعليم والاكتساب تكتيكياً من جهة ، والجدل التاريخي من جهة أخرى .
7. الحضارة تعني الانتقال من الحيوانية إلى الإنسانية ومن البربرية إلى التحضر أي إلى حالة أكثر رقياً وتقدياً .

وهذه الخصائص سيكون لها مدلولاتها للحديث عن التربية ، لأن التربية بمفهومها العلمي تتطابق إلى حد كبير مع مفهومنا لهذه الخصائص ، ومن هنا حاول العلماء والمفكرون أن يحددوا العناصر التي تقوم عليها الحضارة ففي كتاب مالك بن نبي " شروط النهضة " كالآتي [1]:

1. الزمان أو الوقت الكافي للفعل الحضاري .
2. المكان أو التراب أو البيئة التي يتم فيها الفعل .
3. الإنسان (الفعل والإرادة الإنسانية والوعي) واشترط مالك بن نبي لتفعل هذه العناصر فعلها عنصراً رابعاً وجعله أكثر أهمية .

[1] مالك بن نبي : شروط النهضة ، ترجمة عمر مسقاوي وعبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، القاهرة ، 1996.

4. الفكرة الدينية (أي النظرية التي يعتقدها الإنسان ويستقي منها المعاني والقيم والمفاهيم والمعايير) .

وقد اتفق مع مالك بن نبي كثير من فلاسفة الحضارة في التأكيد على أهمية العامل الديني في الحضارة وفي تفسير التاريخ ، ومن أهمهم كانط وهيجل واشبنجلر وتويمي وألبرت واشقبنسر ورجيه غارودي وغيرهم .

وهنا لا بد لنا من الإشارة إلى بعض الملامح التي يقتضيها فهم الحضارة بهذا المفهوم من خلال تعريفها وخصائصها وعناصرها ، وبناء على هذه الحضارة الإنسانية لا يمكن أن تقوم إلا على تكامل جوانبها : المعنوية والمادية وفهمها في سياقها استاتيكيا ، فهي من ناحية الثبات تقوم على مبدأ الفطرة الإنسانية الواحدة فالإنسان واحد في كل زمان ومكان ، وعماد الحضارة عقل الإنسان ، وهو كما يقول الفلاسفة " أعدل الأمور قسمة بين الناس " ويقوم على توابث من البديهيات والقوانين الأساسية التي لا خلاف فيها منذ آدم حتى نهاية الخليقة وهذا الحد أدنى من الفهم المشترك أو الاتفاق النسبي إلى جانب الطبيعة واحدة من حيث أن الإنسان مدني بالطبع ، لا يستطيع العيش إلا في جماعة من حيث أن اجتماعه لا يقوم على سد احتياجاته الغريزية المادية فقط ، وإنما على غريزة أخرى معنوية مطبوع عليها قبل نزوله إلى الأرض وهي " غريزة الأنس" والملازمة لغريزة التوحيد لله تعالى فالله قد خلق الإنسان ليعبده ولم يخلقه وحيداً بل " خلق نفساً وخلق منها زوجاً " قبل أن تسند الوظائف ، وقبل أن تبدو السوءات للذكر والأنثى ، فالأنس بالآخر أصل في طبعه واجتماعه اجتماعه سامي لأجل غاية أسمى من حاجاته الحيوانية كما يذهب لذلك من المفكرين دون أن يتدبروا الأمر في ضوء العقيدة الإسلامية .

أما في الجانب الديناميكي فإن العلاقة بين عناصر الحضارة يقوم على حقيقة التعمير في الكون كسنة من سنن الله في خلقه يخضع لها مخلوقاته ، ومن هنا لا يمكننا فهم عناصر الحضارة إلا في ديناميكيتها وجدليتها ، وتصبح التربية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بهذا الفهم والتصور للحضارة وعناصرها والعلاقة بينها .

- **البعد الاجتماعي :**

في الجانب الاجتماعي فإن فهمنا للعلاقة بين التربية والحضارة لا بد أن يتم في إطار تصورنا للنظام الاجتماعي وعناصر تكوينه وجدل العلاقة بينهما .

لقد تبلورت مفاهيم البناء الاجتماعي والنسق الاجتماعي والفعل الاجتماعي عبر مراحل ، فقد بدأت مع العلماء الأوائل كابن خلدون ، ودوركايم ، وأوجست كونت ، ومتسكيو ، وتمثلت في فكرة تشبيه المجتمع بالكائن العضوي كما لدى سبنسر وفي فكر البناء أو الوظيفة عند علماء الاجتماع المعاصرين وقد اعتبر " راد كليف براون " أن كلمة بناء تشير بالضرورة إلى هذا النسق ، وكذلك في مجال الفعل والأسرة والإطار الواسع للفعل عند مبر وبلومر وغيرهما [1].

ومن نافلة القول الإشارة إلى أهمية ما أسهمت به النظريات في تحليل وتفسير الفعل الحضاري والذي يندرج تحته مفهوم الفعل الاجتماعي تعبير علماء الاجتماع .

وقد عرف دور كايم وظيفة الاجتماعي بأنها التناظر بينه وبين حاجات الكائن العضوي الاجتماعي واضعاً نصب عينه الشروط الضرورية لوجود الكائن في إطار فهمنا للنظام الاجتماعي على أنه محافظة على وجود الانسجام واستمراريته وتحمل الوظيفة الاجتماعية بمعنى أن نصيب النشاط الاجتماعي الجزئي في النشاط الكلي والذي يؤلف هو جزء منه [2].

ووظيفة أي ظاهرة من الظواهر أو عنصر من عناصر السلوك الاجتماعي هي الدور الذي تؤديه هذه الظاهرة في الحياة الاجتماعية التي تعبر عن النسق الاجتماعي الكلي وتصدر عنه ، والمقصود بالنسق الاجتماعي الكلي Total Social System هو البناء الاجتماعي بما يتمتع به من وحدة وظيفة ومن انسجام واتساق واطراد وسطوة .

وقد اختفت العلماء حول العناصر التي يجب إدخالها في (البناء) أو على الأصح في تعيين مكونات البناء فمثلاً اعتبر " راد كليف براون " العلاقات الثنائية التي تقوم بين شخصين أو بين الأسرة علاقات بنائية تؤلف جزءاً في البناء الاجتماعي ، فيما أنكر " إيفانز ريتشارد " ذلك باعتبارها لا تحظى بالدرجة التي تؤهلها للتأثير وقصر ذلك على

---

[1] انظر أحمد الأحر ، علم اجتماع الأسرة ، دار الكتاب المتحدة ، طرابلس ، 2004 ، ص 74 .

[2] أحمد أبو زيد ، البناء الاجتماعي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1971 ، ص 91 .

العلاقات التي تتصف بالاستمرارية والتي تقوم في الجماعات الكبيرة كالعشيرة أو القبيلة أو غيرها .

فيما نجد " ردفيلد " يؤكد على أننا نستطيع أن نقوم بدراسة البناء الاجتماعي في ضوء أمرين :

1. أننا لن نهتم بالعلاقات التي لها أهمية مؤقتة فحسب فالصداقة لا قيمة لها إلا إذا أصبحت طويلة ومؤثرة ودائمة على سبيل المثال .
2. هو أن نطبق مبدأ الأهمية على تلك العلاقات فتخيل ما قدر الجماعة أو القربى ولو اختفت أو تغيرت هذه العلاقة الاجتماعية أو تلك وبذلك قد نستطيع أن نحكم مثلاً في ثقة واطمئنان بأنه لو أزيلت تماماً العلاقات المعقدة التي تقوم بين الزوج والزوجة أو بين الوالدين والأولاد في أي مجتمع لظهر لنا مجتمع آخر مختلف تماماً عن الأول .

وهكذا نجد أن العلاقات التي تؤلف العائلة الصغيرة لها بغير شك أهمية بالغة تقتضي منا إدخالها في دراستنا للبناء الاجتماعي .

ولسنا بصدد تتبع أهمية الكامن في البناء الاجتماعي كما أشار " ميرتون" أو أهمية الوظيفة بجوانبها المختلفة وتطورها كما تبدو في دراسات " مونتاني " و"هنري مين" وعلماء الأنثروبولوجيا " مالنيوفسكي " و " تورنفالد " ومن قبلهم دوركايم ختي رادليف براون الذي اعترف بتعريف دوركايم السابق عرضه في بداية كلامنا عن البناء الاجتماعي [1].

نخلص إلى القول إن هؤلاء جميعاً على اختلافهم في تحديد العناصر التي يجب إدخالها في البناء إلا أنهم قد اتفقوا اتفاقاً عاماً على مفهوم البناء يتضمن فكرة استمرار البناء في الوجود لفترات طويلة جداً من الزمن ، وعلى ذلك يجب أن يهتم الباحث في دراسته للبناء الاجتماعي من الزواية الثابتة مع عدم إغفال الأمور والعناصر الجزئية ذات الدلالات المباشرة بالنسبة للمتخصصين في كل مجال من مجالات المعرفة الإنسانية ، كالأنثروبولوجيين والاجتماعيين والأخصائيين الاجتماعيين أو غيرهم .

---

[1] للتوسع في الموضوع انظر : علي ليلة ، النظرية المعاصرة ، دراسة لعلاقة الإنسان بالمجتمع ، دار المعارف - مصر ، القاهرة ، 1983 .

وقد اختصت الباحثة الحديث عن العلاقات كمثال للخلاف بين العلماء في مجال عناصر البناء الاجتماعي لما لها من دلالة في الاهتمام بالتربية خاصة في مجال المؤسسات الاجتماعية وفي الأسرة تحديداً وهذا كلام سيكون له دلالته في هذه الورقة عند الحديث عن التربية الإسلامية وتمثل مكونات الحضارة .

ويهمنا في الجانب الاجتماعي ارتباطاً بنظرية المعرفة الإجابة على سؤال مهم وهو : كيف تعمل عناصر الثقافة من خلال البناء والنسق الاجتماعي في تكوين الشخصية وتمثلها للحضارة ؟

ففي حين يعد البعض العناصر المادية والتكنولوجية من الحضارة عناصر أهم في تشكيل شخصية الإنسان وسلوكه وإحداث التغير والتوازن الاجتماعي على حد سواء من خلال النظام التربوي للمجتمع يرى البعض الآخر أهمية الإطار المعرفي متمثلاً في الثوابث العقلية في تشكيل شخصية وأفعال الإنسان وفي تحقيق التربية ونتائجها [1].

ويذهب الفريق الأكبر من المفكرين إلى جعل العناصر المعنوية (الروحية والأدبية) أكثر أهمية في هذه العملية بل إن " فلريدو باريتو " يذهب إلى أبعد من ذلك فيما يسميه " بالرواسب " أو " البواقي" الحقيقية الكامنة وراء تأكيد التوازن الاجتماعي عن طريق تشكيل السلوك بعيداً عن التفسيرات المنطقية وقد قسم باريتو الأفعال إلى نماذج منطقية حيث يرى أن كل الجهود لتفسير السلوك الإنساني قد سارت في الاتجاه الخطأ حيث معظم التفسيرات الميثولوجية والفلسفية وحتى العلمية إلى تجاهل العناصر غير المنطقية في السلوك الإنساني وتشكل الملامح الأساسية للفعل (الرواسب) وليست للعناصر المتغيرة (المشتقات) وتغير الرواسب دوائم أو ثوابت غير منطقية وهي بطبيعتها تجليات للعواطف .

وتتطابق الرواسب عند باريتو من مختلف الجوانب مع ما يصفه " شوبنهاور" ونيتشه (بتجليات الإدارة) ويعتقد باريتو أن الرواسب القوى الحقيقية الكامنة وراء تأكيد التوزان الاجتماعي وهذه الرواسب تنقسم إلى ست فئات [2]:

---

[1] انظر مثلاً : أحمد سالم الأحر ، علم اجتماع الأسرة ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، طرابلس ، ليبيا ، 2004 .

[2] علي ليلة : النظرية الاجتماعية المعاصرة ، مصدر سابق ، ص 692 – 700.

- رواسب الترابط .
- رواسب إظهار التجمعات .
- رواسب إظهار العواطف من خلال الأفعال الخارجية .
- رواسب الألفة .
- رواسب الجنس .

ويرى باريتو أنه ينبغي ألا تقتصر دراسة علم الاجتماع على الرواسب فقط وإنما يحاول أن يتجاوز ذلك لدراسة علاقة الرواسب بالمشتقات ، هذه المشتقات تتكون من الأساليب التي يبرر بها البشر أفعالهم ويشرحونها .

ويري باريتو أيضاً صاحب نظرية الأنساق في إطار تأكيده على الرواسب والعواطف الكامنة في عمق الذات الإنسانية أن هذه العناصر هي العناصر الحقيقية الدافعة لحركة التاريخ ، وهنا نجد أن نظرية الفعل الاجتماعي تعتبر من أهم نظريات علم الاجتماع المعاصر والتي تفسر علاقة الفرد بالمجتمع ، وتبرز أهمية القضايا المتعلقة بالحقائق الواقعية الخيالية ثم السلطة ، سلطة الماضي والتقاليد والإدارة الإلهية والسير حسب المبادئ والعواطف ومصلحة الآخرين ثم البراهين اللفظية وهي استخدام الألفاظ والمصطلحات حسب الحقائق أو الشعارات ، وهذه المشتقات كلها في إطار الأيديولوجيات [1].

فهي تؤكد على تغير أو عدم ثبات الظواهر الاجتماعية العديدة وتعتبرها في حركة دائرية وإن كان هو حقيقي في التاريخ يتمثل في تلك التقلبات أو التأرجحات التي تمتد لفترات زمنية قد تطول أو تقصر بعيداً عن المفهوم المحدود للتغير بالتطور أو الإطراد في خطوط حركة النظم الاجتماعية إذ يتجاوز مفهوم التغير هذه المحدودية من وجهة نظر فلفريدو باريتو الذي يؤكد على أنه قد لا يستطيع الصفوة المحافظة على نسق المجتمع بافتقادها للقوة لغرض عدم التغير ، وتعد إسهامات باريتو في دور الصفوة بين التوازن والتغير الاجتماعي من أهم إسهاماته [2].

---

[1] علي ليلة : النظرية الاجتماعية المعاصرة ، مصدر سابق .

[2] ماكيفر ويدج ، ترجمة لجنة من الأساتذة ، مكتبة النهضة المصرية .

والحقيقة أن الذي يمعن النظر في حركة المؤسسات التربوية في مجتمعنا الإسلامي يجد أنها قد تطورت وطرأ عليها كثير من التغيرات في البناء والوظيفة على حد سواء وفي الإطار المعرفي الذي هو في حقيقته فعل حضاري تشكل عن طريق عملية التربية .

فلقد تطورت الأسرة مثلاً وتغيرت أشكالها من حيث كونها البيئة والثقافة ووسيلة التربية ومجالها الذي يحدد غاياتها ومراميها [1].

وقد اتفق المفكرون على أن الإطار الحضاري (المعرفي والاجتماعي) للفرد والجماعة ينبغي أن يبنى على نظرية كونية ، فالحضارة والثقافة بمعناها الحقيقي لا تقتصر على مجرد المعلومات والتصورات الذهنية لدى الفرد بل تطال مجموع الشخصية الإنسانية ومدى تفاعلها مع البيئة لكون وثقافة المجتمع لا تعكس تصوراً فردياً بل هي صورة المجتمع ككل والأمة بأسرها إلى جانب أن الثقافة تشكل طموحات النفس البشرية ، هنا نجد أنفسنا ملزمين ببيان الفرق المهم بين مصطلح الحضارة ومصطلح الثقافة وهو أن الحضارة الإنسانية هي مجموع ثقافات الشعوب وما أنتجته وأنها مع ذلك ديناميكية مستمرة .

ونلاحظ أن هناك تطابقاً بمعنى ما بين الثقافة كمفهوم حيوي في اللغة وعملية حية ممارسة في الواقع فالثقافة كتربية واستمرار واتصال هي عملية متجددة دائمة لا تنتهي .

التربية والحضارة :

ذكرنا أن المفكرين قد اتفقوا على أن الإطار المعرفي والمرجعي للحضارة لا بد أن يبنى على " نظرية كونية شاملة" [2] للكون والحياة تفسر الوجود وتستمد منها منظومة القيم التي تشكل عناصر البناء الاجتماعي وعناصر الثقافة في المجتمع ومرجعيتها أطر السلوك .

ويعزى البعض الخلل في تصور الحضارة على حقيقتها عند المتاب في الغرب إلى القصور في فهم الرؤية المسيحية إلى الله والرسل ، ومن ثم إلى الكون والحياة الإنسانية

---

[1] انظر : زهير حطب ، تطور بنى الأسرة العربية ، معهد الإنماء العربي ، بيروت ، 1976 .

[2] ألبرت اشفيتسر " في الفلسفة الحضارة " ترجمة عبد الرحمن بدوي : دار الأندلس ، بيروت ، 1980 ، ص 7 .

وهو ناتج من التشويه الذي عبرت عنه أقانيم التثليث في العقيدة المسيحية فهي مفارقة لا ترضي طموح العقل ولا ترتاح لها الفطرة السليمة لأنها لا تتسق مع التصور السليم لنسق الكون ، ثم المخ والطمس الذي حدث لهذه العقيدة إبان العصر الروماني وبعده الحداثة والعلمانية بفصل العقل والعلم عن الدين والعقيدة مما أدى إلى زيف النموذج الحضاري الغربي حيث تقف الحضارة الغربية على ساق واحدة هي المادية وتهمل الجانب الروحي والعقائدي الذي تستمد منه منظومة القيم والمعاني الحقيقية التي تقف وراء السلوك الإنساني ، وتجعله يحافظ على ماهية الإنسانية لا خضوعاً لسلطة بالخوف بل بالنزول عند سطوة الضمير وراحته بالقبول والرضى وهو جانب نفسي له أهميته في تركيب شخصية الإنسان واستقراره النفسي بالنظر إلى إطار المعرفي الذي ينشأ فيه .

إذا كان هذا الخلل في الحضارة الغربية المعاصرة قد جعل أغلب المفكرين يتنبؤون بسقوطها وانهيارها خاصة بعد حدوث الحربين العالميتين في القرن العشرين وسائر مظاهر الاستعمار والدمار على مساحات من الكرة الأرضية ، ومن أمثلة هؤلاء المفكرين أشبنجلر وتوينبي وكولن ولسون وألبرت أشفيتسر وول ديورانت وغيرهم* .

وإذا كان عالم اللاوعي عند الفرد لدى فرويد قد أصبح أساساً لتفسير الشخصية والسلوك فإن هذا التفسير قد ألقى ظلاله على سائر فروع العلوم الإنسانية فطفق بعض العلماء يتحدثون عن الجانب " اللاوعي " في تفسير سلوك الفرد والجماعة في المجتمع أو ما يمكن أن نسميه " اللاوعي الجمعي " من أمثاله باريتو كما أسلفنا وكذلك ما أسماه " غوستاف لوبون " روح الجماعات ، وغيرهما ، وكذلك في فلسفة التاريخ والحضارة وتحديد مسارها كما تبدى في نظرية اشبنجلر في البعد الحيوي لتفسير الحضارة حيث عول على جانب اللاوعي الذي يعمل داخلياً ليحرك المجتمع في اتجاهه دون وعي لأنه يمثل لا وعي الجماعة ويرتد في النهاية للنظرية الكونية التي يعتقدها [1].

---

* - اشبنجر (1880 - 1930) صاحب البعد الحيوي في تفسير الحضارة .
- توينبي (1989 - 1962) صاحب نظرية التحدي والاستجابة في تفسير الحضارة .
- كولن وزلسون مفكر وأديب معاصر صاحب كتاب " سقوط الغرب " أو " سقوط الحضارة " .
- ألبرت اشفيتسر (1875 - 1965) كاتب ومفكر ألماني صاحب نظرية الحضارة أخلاق .
- ول ديورانت - مؤرخ وفيلسوف معاصر صاحب كتاب الحضارة رخصة الفلسفة .

[1] أحمد صبحي ، في فلسفة التاريخ ، منشورات جامعة قاريونس بنغازي ، 1989 ، ص 343 .

وفي مجال الحضارة كذلك نجد الاعتماد على نظرية كونية شاملة في معتقد أفراد المجتمع بشكل وجدانهم وعواطفهم وتتمثل في مبادئهم وتشكل سلوكهم وتوجيههم بلا وعي نحو اتخاذ قرارات ومواقف وأحكام وموازنات ، يتم هذا كله في إطار عملية التربية وأبعادها ونتائجها ويؤكد اسقيتسر أن العقيدة القائمة على المثل الأخلاقية الناجمة عن التأمل هي وحدها القادرة على إيجاد نشاط حر وإلى بناء الحضارة الإنسانية [2] .

ويفسر المفكر محمد يس عربي هذا في إطار الفلسفة الإسلامية بقوله :

(يمكن القول إجمالاً إن الفرد بوجوده العقلي والحسب أمة في حد ذاته فالروح باعتبارها من عالم الأمر تتعقل الكليات وتعايش المعاني التي من بينها الأمة ، وهي التي تقوم برد الكثرة إلى الوحدة التي من بينها تصور الأفراد على هيئة مجتمع وبالتالي تقوم الروح بتحمل المسؤولية على أنها أمة ، وتناظر ما يسمى في القرآن بالنفس المطمئنة) ، ومن ثم لا بد من حدوث جدول بين المعنى الجزئي والكلي فيتحول الصراع إلى " تسامي جواني " لتحقيق الفعالية للأمة فيصبح وجود الفرد مرآة تعكس وجود الأمة وتتحول كل الطاقات إلى قوى متحدة متطابقة خيرة بدلاً من أن تتحول إلى قوى متصارعة تجلب البلاء للبشر .

ولكن هذا الصراع المتسامي الجواني لا مفر له من الصراع البراني (صراع التقاطع والحدود) وهذا الصراع يجب أن يكون صراعاً إيديولوجياً هي العامل المحرك للتاريخ والقوة الدافعة للتطور [3] .

وفي التربية ينبغي أن يتمثل المجتمع – بمؤسساته المختلفة وأهمها الأسرة النظرية الكونية العامة للمجتمع والأمة من أجل توظيف الصراع فهمه التربية إحداث التوازن الداخلي في ذات الفرد مع المعطيات الخارجية في الصراع الحيواني أما في الصراع البراني الذي يحدث خارج الذات فمهمة التربية إحداث توازن بين هذه المعطيات والتقاطعات من نتائج التوازن الداخلي على مستوى الذات وبالتالي تكامل دائرة التربية الداخلية

---

[2] ألبرت اشقيتسر في فلسفة الحضارة ، مصدر سابق .

[3] محمد يس عربي ، تأملات في بناء المجتمع الإسلامي ، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، طرابلس ، بلا تاريخ .

والخارجية ويصبح هذا التكامل أساساً للإبدع والفعل الحضاري والمتوازن والمتمكن والفاعل .

والجدير بالذكر هنا أن هذا أصبح من مبادئ القانون الدولي في عالمنا المعاصر حيث يقول في مادته الأولى : " إن لكل ثقافة كرامة وقيمة يجب احترامها والمحافظة عليها وإن من حق كل شعب وواجبه أن ينمي ثقافته ، وأن جميع الثقافات تتشكل بما فيها من تنوع وخصب وتأثير متبادل جزءاً من الذات الذي يشترك في ملكيته البشر جميعاً "[1].

التربية والحضارة في الإسلام :

وبعد أن وقفنا على الأبعاد الفلسفية والحضارية والاجتماعية للتربية والحضارة ، يمكن أن نتزل إلى واقعية هذه العلاقة في المجتمع الإسلامي وعلاقته بالنظرية الشاملة للكون والحياة كما جاءت في القرآن الكريم والسنة الشريفة بمبادئها العامة دون التفصيل في هذه المبادئ فقد أفردت لها الكثير من الدراسات والتحليلات التي أحاطت بجوانبها المختلفة وفصلتها [2].

فالذي يهمنا بالدرجة الأولى هو التأكيد على ملامح النظرية الكونية الشاملة في الإسلام إذ إنها :

1. تنسق مع العقل والفطرة لقيامها على جوهر الإيمان بالتوحيد الذي يقوم عليه الكون كله فالدين نظام الكون والخروج عنه نشاز تلك هي حقيقة الإيمان في الإسلام ويتتبع هذه أن قانون البركة هو أصل الكون لا قانون الحسابات العقلية .
2. ومعلوم أن الإيمان في الإسلام يزيد وينقص حسب درجة العلم لأن الإسلام يعني التسليم نتاج عجز أما الإيمان فهو نتاج علم قال تعالى : ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ

---

[1] ناصر السابغي ، البعد الثقافي في مفهوم العولمة السياسية ، مجلة الموقف الثقافي ، بغداد ، 1997 ، ص 7 .

[2] انظر مثلاً : عمر التومي الشيباني ، فلسفة التربية الإسلامية ، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ، طرابلس ، 1975 .

انظر كذلك : محمد الطاهر بن عاشور ، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، 1977 .

ومحمد خان ، الاسم والإنسان المعاصر ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1981 .

وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة : 11] ، وقال الرسول " ﷺ " : "العلماء ورثة الأنبياء" .

وتوضيح الآيات الكريمة الارتباط بين العلم والإيمان في قوله تعالى : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾[آل عمران : 7] ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : 28] .

3. والإيمان المبني على العلم والقائم على مبدأ التوحيد المطلق لله عز وجل هو عنصر مهم في قبول النظرية الإسلامية كأساس إيديولوجي وإطار مرجعي للحضارة والفعل الحضاري خاصة وأنها ظلت على مر العصور تحظى بالقدسية والاحترام حتى من جانب أعدائها فما بالك بأصحابها ما تدعو له من الاتساق مع الفطرة وكرامة الإنسان واحترامه والتعايش في ظل المحبة والسلام في المجتمع فيه سواء على اختلافهم في الجنس والمستوى والدين وهذا ما شهدته عصور الحضارة الإسلامية المختلفة وحتى في عصور الانتكاس والهزيمة *.

4. والنظرية الكونية الإسلامية تقوم على الفطرة السليمة أيضاً وتنسق معها في جوانب أخرى بالإضافة إلى التوحيد ، ومن أهم هذه الجوانب أنه يترتب على التوحيد المطلق لله العبودية له سبحانه دون سواه ويترتب على ذلك نفي الشرك الذي يلزم الناس بعبادة غير الله ويقسم الناس إلى سادة وعبيد فالتوحيد يصحح الأوضاع والعلاقات على أساس من الفطرة وكرامة الإنسان .

5. العقيدة الإسلامية والنظرية الكونية الإسلامية تضمن للإنسان قسمته حين تحترم حريته (حق الحرية) مبدأ أساسي في الإسلام ، ثم تضمن له كرامته في حين أن يمتلك أشياءه وحاجاته (حق الملكية) .

* لعل من أهم الأدلة على هذا شهادة " موسى بن ميمون " وهو فيلسوف يهودي عاش إبان الدولة الإسلامية في الأندلس وسجل شهادته قائلاً : إن اليهود لم يحظوا في عصر من العصور بالراحة والعيش في حرية وكرامة إلا في ظل الحضارة الإسلامية ومبادئها .

6. تحترم العقل تدعو للتفكير والتدبر وتدعو إلى العلم وجعلته فريضة ، وهنا نجد أن من أهم ملامح الحضارة الإسلامية قيامها على الحجة والبرهان وهو منهج أصيل في الدين .
7. تقوم على مبدأ قبول الآخر والتعامل معه وإقامة الحوار واتباع أسلوب التدافع الحضاري من أجل أن يعود الناس إلى الحق بدلاً من الصراع والتقاتل والدمار حفاظاً على تعمير الأرض واستمرار الحياة ، قال تعالى : ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ﴾ [الحج : 40] .
8. جعلت الحضارة الإسلامية المؤسسات الاجتماعية وخاصة الأسرة المكان الطبيعي الذي يتربى فيه الإنسان ويتشرب القيم والمبادئ ويحس بالمعاني ويعيش في مودة ورحمة وتعاون وتآلف ولذلك فقد جعل البيت مكان أمن وستر وجعل له قدسية فلا يدخله أحد إلا بإذن تكريماً للإنسان كما ورد في الآية 27 من سورة : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ وهذا ما يشرحه بالتفصيل القرطبي في الجامع لأحكام القرآن [1].
9. قيام المجتمع على مبدأ التعارف : ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات : 13] والتعارف هنا بمعنى المعرفة وبمعنى المعروف معاً وذلك جعل التسامح والرحمة وقبول الهدنة حتى في حالة الحرب لازمة من لوازم خلق المسلم .
10. جعلت التغير الاجتماعي والحضاري في حياة المسلم منوطا بإرادة الفعل والاختيار المبني على نية وعمل قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد : 11] وهذا معنى لم يدركه الغرب إلا في عصور متأخرة بعد ما عانت البشرية من ربقة القهر والحجر على العقل والفكر والعلم إبان سيطرة الكنيسة على المجتمع ما أدى إلى الثورة عليها والمناداة بنبذ الفردوس السماوي والمطالبة بالفردوس الأرضي على يد " فولتير " وغيره من فلاسفة عصر التنوير ، ويرى البعض أن التغير الاجتماعي ينبغي أن يحدث باستمرار وإلا ظل المجتمع يعاني من التخلف

---

[1] القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، دار الشام للتراث ، بيروت ، بلا تاريخ .

الحضاري وذلك من أجل التطور والتقدم باستمرار مع مستجدات الحضارة وإنجازاتها واكتشافاتها ولذلك لا بد من التغيير المستمر والتخلف يحدث نتيجة عدم وجود القدرة الذاتية لدي المجتمع على النمو والتقدم وهذه القدرة على وجهين :

1. قدرة العقل المتمثلة بالعلم وهي تبدو في ميدانين : ميدان الطبيعة وميدان الإنسان .

2. القدرة الأصلية الثابتة وهي قدرة النفس أي القدرة الخلقية الذاتية الناجمة عن عمق الإيمان والسيطرة على الشهوات والأطماع والإقبال على البذل والتضحية والتعاون والمشاركة في سبيل المثل العليا التي يطمح إلى تحقيقها [1].

ويؤكد المهتمون بعلم الاجتماع التربوي والتخطيط الاجتماعي أنه ينبغي الاهتمام بالتربية كعملية متكاملة في ضوء النظرية الكونية التي يعتقدها المجتمع ويستمد منها أهدافه وأن تكون هذه السياسة قائمة أيضاً على النظرة الشاملة للإنسان والبيئة نظرة بعيدة المدى واسعة الأفق [2].

كما يؤكد علماء التربية وعلم الاجتماع على أن اختفاء العلاقات الشخصية وسلطة التقاليد الاجتماعية هي عامل في أول تفسير المشكلات الاجتماعية والأمراض النفسية التي بدأت تظهر في كثير من المجتمعات المسلمة.

هذا في حالة التغير الاجتماعي الذي يتم على غير وعي من أفراد المجتمع وعلى غير اختيار ونية وسبق تخطيط ورصد ، ولذلك فوفق النظرية الإسلامية في التربية والحضارة ينبغي أن يكون الفعل الحضاري الواعي هو أساس " التغير " في المجتمعات وليس مجرد الاستسلام " للتغير " التلقائي دون وعي وقصد والسؤال الذي يطرح نفسه هو " هل استطاعت المؤسسات الاجتماعية والأسرة تحديداً أن تؤدي وظائفها وتقوم بدروها في ظل المتغيرات الطارئة على البيئة الإسلامية ومستجدات وعناصر الحضارة المعاصرة ؟ وبمعنى آخر أين هو موقع الأسرة المسلمة من هذه التغيرات ؟"

---

[1] قسطنطين زريق ، نحن والمستقبل ،دار العلم للملايين ، بيروت ، 1980 .

[2] علي الحوات ، دراسة عن الشباب الليبي ومشكلاته ، منشورات جامعة الفاتح ، طرابلس ، 1985 .

وتعاني الأسرة كما تعاني المجتمعات المسلمة من خطر كبير تمثل في مستجدات الحضارة المعاصرة التي تحكمها العوامل المادية وقوة العقل بعيداً عن جوهر الدين ومرجعية الروح .

ونظراً لأن الحضارة بكل بساطة معناها بذل الجهود بوصفنا كائنات إنسانية من أجل تكميل النوع الإنساني وتحقيق التقدم من أي نوع كان في أحوال الإنسانية وأحوال العالم الواقعي ، فهذا الموقف العقلي يتطلب استعدادا مزدوجاً ، فيجب أن نكون متأهبين للعمل إيجاباً في العالم والحياة ويجب ثانيا أن نكون أخلاقيين[1] .

ونظراً لأن التربية في علاقتها بالحضارة ونظريتها الكونية لا تتم إلا من خلال البناء الاجتماعي وبالأسرة على وجه الخصوص فإن عوامل التطور والنمو ووسائل الرقي بالإنسان نحو الفعل الحضاري الحقيقي الذي يستهدف الخير والسلام لا يكون إلا بوجود الأسرة في المجتمع وبمستوى كفاءة الأسرة في أداء وظائفها ، وهذا يدخل في باب تصور الشكل السليم للأسرة المسلمة وعلاقاتها بمعطيات الحضارة المعاصرة .

وحيث إن الأسرة تقوم بين الأهل ، والأهلية في الإسلام تعني الانتماء المشترك للعقيدة الواحدة قبل رابطة الدم وغيرها من الوشائج فقد قال الله تعالى لنوح وهو يسأله عن ابنه ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود :11] فنفى الأهلية عنه لأنه كافر لذا فإن الانتماء المشترك هو الأسس العقائدية المشتركة أولاً وأخيراً وفي إطارها توزن الأمور فهي بمثابة الميزان الذي يقرر مدى صلاحية الأمور من عدمها .

وينبغي أن نتنبه إلى أن الحضارة الإنسانية بعد هذا الكفاح الطويل في سبيل المحافظة عليها هي من التنوع والاتساع الذي يحقق سنة الله في الكون ولذلك يجب أن تعمل الأسرة لاحتواء هذا التنوع وأن تترك الفرصة سانحة لأبنائها أن يتمثلوا مبادئ ومعاني الفلسفة الحقيقية للحضارة الإسلامية منذ تواجدهم في الأسرة وقبل خروجهم للمجتمع الخارجي حتى يكونوا قادرين على احتوائهم والتفاهم معهم وإقامة أواصر التعاون والعمل المشترك فالله قد خلق كل إنسان له بصمة أصبع متفردة وبصمة صوت وبصمة عين أيضاً فلا يضيق الكون بهذا العدد الهائل من الأفراد على اختلافهم واختلاف مشاربهم ومآربهم ومواهبهم وبالتالي ينبغي أن تبقى عقول الناشئة على هذا

---

[1] ألبرت اشفيتسر ، في فلسفة الحضارة ، مرجع سابق ، ص 52 .

الحس الحضاري الرفيع في التعامل مع الآخر وإقامة الحوار معه من أجل تحقيق مبدأ التدافع الحضاري والتعارف بين الناس والأمم ، ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : 92] ، ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ [البقرة : 251] .

ملامح واقعية :

بعض العناصر التي تمثل مستجدات على كيان الأسرة المسلمة :

1. إن زحف العولمة بإيجابياتها وسلبياتها تشكل خطراً واضحاً على كيان الأسرة المسلمة وتؤثر بشكل مباشر على بناء الشخصية ودورها في العلاقات داخل الأسرة وعناصر الضبط الاجتماعي ووسائله .
2. كثير من المشكلات والظواهر الاجتماعية سببها المستجدات التي تعصف بكيان الأسرة إثر انتشار ودخول عناصر من الثقافات الأجنبية على المجتمع الإسلامي وأصبح تأثيرها واضحاً من خلال وسائل الإعلام والتكنولوجيا ومستحدثاتها ووسائل الاتصال وتقنياته .
3. نظراً لزحف الثقافة الغربية على الإسلام عبر وسائل الاتصال المختلفة اختلفت كثيراً من القيم الإسلامية التي تخص العلاقات وتتمثل في القواعد والأصول والتقاليد والأعراف والقيم ووسائل التعبير ومظاهره .
4. ظهور الاهتمام بالمظاهر المادية للمدينة وإهمال جانب المعاني والقيم نتيجة لبعد الناس عن الدين ونمط الحياة الإسلامي تمشياً مع ما أملته المتغيرات الطارئة على بناء المجتمع ونشأ عن تفكك في العلاقات وزيادة في حجم المشكلات كالطلاق والانحرافات بأنواعها وأهمها إلغاء مبدأ القوامة الذي هو أصل في الشريعة الإسلامية حيث الرجل ملزم بمتطلبات الأسرة وقيم عليها .
5. اضطراب مواعيد ونظام الحياة اليومية نتيجة للبعد عن الدين والمعلوم أن المواقيت في الإسلام دقيقة ومبنية على مواعيد الصلوات الخمس ومترتبة عليه وقد انعكس هذا على العلاقات أيضاً وعلى وسائل الضبط الاجتماعي المتعارف عليها في المجتمع المسلم .

6. انعزال الأفراد عن بعضهم البعض نتيجة لارتباطهم بوسائل التكنولوجيا المختلفة من تلفزيون وفيديو وهاتف نقال ووسائل الألعاب التكنولوجية Play Station وكذلك بأجهزة الكمبيوتر والإنترنت مما نتج عنه تفكك في العلاقات والإحساس بدائرة الآخرين وهذا أصل في القرآن إذ يجعل للعزلة مواقيت محدودة أما بقية الأوقات فالمسلم ملزم بالتواجد في دائرة الآخرين وهو ما تؤكده الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النور : 58] ، وهذا ترسيخ لقواعد الضبط الاجتماعي ويعتبر ذلك فريضة لأن بداية سورة النور ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا ﴾ [سورة النور : 1] وكذلك تنظيم المجتمع الإسلامي حسب ما ورد في سورة النساء [1].

7. تغير هندسة المنازل وأشكالها وأنماطها اختلافاً مع النمط الإسلامي الأصيل الذي يجمع الأسرة ويربطها باستمرار بعلاقات ملزمة وأوقات معروفة من أجل تحقيق الدفء والانسجام الأسري والتعارف والتشاور وسائر العمليات التربوية ، فقد أصبحت المنازل إما صغيرة جداً " شقة " لا تسمح باجتماع الأسرة وإما واسعة مترامية وكل جناح مفصول عن غيره ، بحيث لا يلتقي أفراد الأسرة إلا لماماً فلا يحس الأخ بأخيه أو الأم بابنتها أو الأب بسائر الذين يعولهم ولا يأنس منهم بالآخر كما ينبغي وكما يفترض حسب النظرية الإسلامية وقيم الانتماء ناهيك عما ترتب عن هذا الانعزال من مشكلات نفسية واجتماعية .

8. فقدان لغة التعبير وعدم التواصل مع التراث بمحتواه الثقافي هذه العوامل كثيرة تخص التربية والحضارة ، والأسرة ومستجدات الحضارة المعاصرة وانعكاسها عليه ، وتكتفي الباحثة بالإشارة إلى هذه الجوانب لأن التفاصيل لا يتسع المقام لذكرها فالموضوع كبير ومتشعب وينبغي أن يكون محط اهتمام لدى القائمين على التربية

[1] انظر : محمد المدني ، المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ، 1973.

والحضارة على حد سواء بالإضافة إلى القائمين على الإعلام والتربية والثقافة والمرافق والإسكان وعلم النفس والصحة النفسية والخدمة الاجتماعية والقائمين على الدعوة الإسلامية وكافة المتخصصين في نواحي التنمية .

الخاتمة :

استهدفت ورقة العمل في التربية والحضارة بعض الأسس النظرية للموضوع في أبعاده الفلسفية والحضارية والاجتماعية موضحة أهمية النظرية الكونية في قيام الحضارة واستمرارها ، ثم ملامح هذه النظرية في العقيدة الإسلامية وعلاقتها ببناء المجتمع ومؤسساته التربوية وخاصة الأسرة باعتبارها تمثل بؤرة انصهار عوامل التأثير والتأثير الحضاري الثقافي ومجال تمثل القيم والمتغيرات وإحداث التوازن بين مستجدات العصر .

أتمنى أن أكون قد وفقت والله من وراء القصد

" الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله "